تفريغ السلسلة الصوتية الصادرة
عن إذاعة البيان

ثمار المعرفة

الطبعة الأولى - 1446 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة

ثمار المعرفة

الصادرة عن إذاعة البيان

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ

مؤسسة صرح الخلافة

مركز إنتاج الأنصار

الفهرس

المقدمة.....٤
الحلقة الأولى: في مخالطة النَّاس واعتزالِهم.....٥
الحلقة الثانية: لزوم الصِّدق ومجانبة الكذب.....١٢
الحلقة الثالثة: الحياء.....١٦
الحلقة الرابعة: حفظ اللِّسان.....٢٠
الحلقة الخامسة: الحكمة.....٢٨
الحلقة السادسة: إفشاء السَّلام وإظهار البِشْر.....٣٥

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يسر إخوانكم في مؤسسة صرح الخلافة أن يقدموا لكم تفريغًا لسلسلة (ثمار المعرفة) الصادرة عن إذاعة البيان، وهي من ٦ حلقات. وتم مراجعتها نحويًا ولغويًا، وُجِّد في السلسلة: علامات التنصيص للآيات والأحاديث والأقوال كل على حسبه، ووحدت كذلك الألوان للآيات والأحاديث والأبيات كل على حسبه، وخرجت الأحاديث النبوية.

نسأل الله الكريم أن ينفع ويبارك فيها.

إخوانكم في صرح الخلافة

الحلقة الأولى: في مخالطة النَّاس واعتزالِهم

أعزَّاءنا المستمعين، نترككم مع برنامج: "ثمار المعرفة"

قال الله -تعالى-: {هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)} [سورة الكهف]. وقال الله -تعالى- أيضاً: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)} [سورة آل عمران].

وعن أبي سعيد الخدريِّ -رضي الله عنه- قال: أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: "أي النَّاس أفضل؟" فقال: (رَجُلٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ) قال: "ثم من؟" قال: (مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ، يَعْبُدُ اللَّهَ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النَّاسَ من شره) [صحيح مسلم].

واعلم أيُّها المسلم -هداني الله وهداك- أنَّ صاحب الحكمة يتوخَّى الاعتزال، ويتوقَّى مواطن الشُّبهات والاختلال؛ حتَّى يسلمَ من اكتسابِ خصلة مذمومة أو اكتسابِ عادة ممجوجة؛ فمن آثر السَّلامة نجا، ومن خاض مع الخائضين هوى؛ ولقد قال عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنه-: "إن في العزلة راحةً من خلاط السُّوء"، وعليك ببذل الجَهْدِ عند المشورة، وأحبَّ في الله بعزم، واقطع في الله بحزم، ولا تخالِلْ إلا تقيًّا عالمًا، ولا تخالِطْ إلا عاقلًا بصيرًا، وكن مقتديًا بمن قبلك من الأئمَّة، ومعلِّمًا لمن بعدك من الأمَّة، وكن إمامًا للمتَّقين كهفًا للمسترشِدين، ولا تُظهِرنَّ إلى أحد شكوى، ولا تأكلْ بدينك الدُّنيا، وخذ بحظِّك من العزلة، ولا تأخذنَّ إلا حلالًا، وجانب الإسراف، واقنع من الدُّنيا بالكفاف.

واطلب الأدبَ في بساتين العلم، والأنسَ في مواطن الخلوة، والحياءَ في شعاب النَّفس، والاعتبارَ في أودية التَّفكُّر، والحكمة في رياض الخوف، واعرف دوامَ إحسانِ الله إليك مع

مخالفتك لأمره، وحلمَه عنك مع إعراضك عن ذكره، وسترَه عليك مع قلة حيائك منه، وغناه عنك مع فقرك إليه.

الخيرُ أجمعُ في السُّكوتِ *** وفي ملازمة البيوتِ
فإذا تأتَّى ذا وذلكْ *** فاقتنعْ بأقلِّ قوتِ

وقال آخر:

وَلقمةٍ بجَرِيشِ الملح تأكلها *** ألذُّ من تمرة من كفِّ مغرورِ
وأكلةٍ قرَّبت للهُلْكِ صاحبَها *** كحبَّة الفخِّ دَقَّت عُنْقَ عصفورِ

ولقد أراد بعضُ العلماء من لزوم الاعتزال رياضةَ الأنفسِ على التَّصبُّر على الوحدة؛ فإنَّ المرء متى لم يأخذ نفسه بترك ما أبيح له؛ فأنا خائف عليه الوقوعَ فيما حُظِر عليه، وأمَّا السَّبب الذي يوجب الاعتزال عن العالم كافَّة؛ فهو ما عُرِف عنهم من دفن الخير ونشر الشَّر، يَدفِنون الحسنةَ ويُظهِرون السَّيِّئة، فإن كان المرء عالمًا يدعوه، وإن كان جاهلًا عيَّروه، وإن كان فوقهم حسدوه، وإن كان دونهم حَقَرُوه، وإن نطق قالوا: "مِهذَار"، وإن سكت قالوا: "عيّ"، وإن قَدَر قالوا: "مقتِّر"، وإن سمح قالوا: "مبذِّر".

فالنَّادم في العواقبِ المحطوطُ عن المراتب هو من اغترَّ بقومٍ هذا نعتُهم، وغرَّه ناسٌ هذه صفتُهم؛ ولقد أحسن من قال:

زمانك ذا زمان دخول بيتٍ *** وحفظٍ للِّسان وخفضِ صوتِ
فقد مرجت عهودُ النَّاسِ إلا *** أقلَّهُمُ فبادرْ قبل فوتِ
فما يبقى على الأيَّام شيء *** وما خُلِقَ امرؤٌ إلا لموتِ

وعن نافع، عن مالك بن أنس -رضي الله عنهم- أنه بلغه عن أبي ذرٍّ -رضي الله عنه- أنه قال: "كان النَّاس ورقًا لا شوك فيه، فهم اليوم شوك لا ورق فيه".

وفي هذا المعنى أنشد الشَّاعر:

ذهب الحسن والجمال من الناس *** ومات الذين كانوا ملاحًا
وبقى الأسْمَجُون من كل صنف *** إنَّ في الموت من أولئك راحَة

وتذكَّرْ أنَّ البشرَ مجبولون على أخلاق متباينة وشيم مختلفة، فكلٌّ واحد يحب اتِّباعَ مساعدته وتركَ مباعدته، فمتى رام من أخيه ضدَّ ما وطَّن نفسَه عليه قلاه، وإذا تبيَّن له منه خلافُ ما أَضمَر عليه قلْبَه ملَّه وسلاه، ومن المِلَالِ يكون الاستثقال، ومن الاستثقال يكون البغض، ومن البغض تهيج العداوة.

ولقد أحسن من يقول:

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُه *** وقرَّت به عيناي بُدِّلتُ آخَرَا
وذلك أنِّي لا أصاحب صاحبًا *** من النَّاس إلا خانني وتغيَّرا

وقيل في ذلك: إنْ كان في مخالطة النَّاس خير؛ فالعزلة أسلم، وكان مالك بن دينار يقول: "من لم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين؛ فقد قلَّ علمه وعمي قلبه وضاع عمره"، ومع ذلك؛ فيجب أن لا يغفل المرء عن مؤاخاة الإخوان وإعدادِه إيَّاهم للنَّوائب والحَدَثَان؛ لأنَّ من تعزَّى عن موضع سلوته بأخيه عند الهموم والغموم؛ كان عقله إلى التَّقديح أقرب ومن النماء أنقص.

وفي هذا قال الشَّاعر:

وما المرءُ إلا بإخوانه *** كما نقبض الكفَّ بالمِعصَمِ
ولا خير في الكفِّ مقطوعةً *** ولا خير في السَّاعد الأجذمِ

وإياك أن تعدَّ في الأَوِدَّاء إخاءَ من لم يواتك في الضَّراء، ولم يشاركك في السَّراء، وربَّ أَخٍ إخاءٍ خيرٌ مِن أَخٍ ولادة، ومِن أتمِّ حفاظِ الأخوَّة تفقُّد الرجل أمورَ من يَوَدُّه، والود الصَّحيح هو الذي لا يميل إلى نفع ولا يفسده منع، والمودَّة أمن كما أنَّ البغضاء خوف، فعليك بمؤاخاة من يعينك على مخالفة الهوى، وأعانك على الرَّأي، ووافق سرُّه علانيتَه.

ولقد أحسن الشَّاعر حيث يقول:

كمْ من أخٍ لك لم يلده أبوكَ *** وأخٍ أبوه أبوكَ قد يجفوكَ
صافِ الكرامَ إذا أردت إخاءهمْ *** واعلم بأنَّ أخ الحفاظ أخوكَ
كم إخوةٍ لك لم يلدك أبوهُمُ *** وكأنَّما آباؤهم ولدوكَ
لو كنت تحملهم على مكروهة *** تخشى الحتوفَ بها لما خذلوكَ
وأقاربٌ لو أبصروك معلَّقًا *** بنياط قلبك ثمَّ ما نصروكَ
النَّاسُ ما استغنيتَ كنتَ أخًا لهم *** وإذا افتقرتَ إليهِمُ فضحوكَ

واعلم -هداني الله وهداك- أنَّ الغرض من المؤاخاة ليس هو الاجتماع والمؤاكلة والمشاربة، ولكنْ من أسباب المؤاخاة التي يجب على المرء لزومها؛ مشي القصد، وخفض الصَّوت، وقلَّة الإعجاب، ولزوم التَّواضع، وترك الخلاف، ولا يجب للمرء أن يُكثِر على إخوانه المؤونات فيبرمهم، ولا يؤاخي لئيمًا؛ لأنَّ اللئيم كالحيَّة الصَّماء، لا يوجد عندها إلا اللدغُ والسُّم، ولا يصل اللئيم ولا يؤاخي إلا عن رغبة أو رهبة، والكريمُ يودُّ الكريمَ على لقية واحدة، ولو لم يلتقيا بعدها أبدًا.

احذرْ مودَّة ماذقٍ *** خلط المرارة بالحلاوة
يحصي الذُّنوب عليك *** أيَّامَ الصَّداقة للعداوة

وقال آخر:

لا يغرَّنْك صديقٌ أبدًا *** لك في المنظر حتى تخبرُه
كم صديقٍ كنتُ منه في عمًى *** غرَّني منه زمانًا منظرُه
كان يلقاني بوجه طَلِقٍ *** وكلامٍ كاللَّآلي ينثرُه
فإذا فتَّشتُه عن غيبه *** لم أجد ذاكَ لودٍّ يُضمِرُه
فدع الإخوانَ إلا كلَّ منْ *** يضمرُ الودَّ كما قد يُظهِرُه
فإذا فزتَ بمن يجمع ذا *** فاجعلنْه لك ذُخرًا تَذخَرُه.

عن سعيد بن المسيب قال: وضع عمرُ بن الخطَّاب -رضي الله عنه- للنَّاس ثمانية عشر كلمة كلها حِكَم؛ فقال: "ما كافأتَ من يعصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وضعْ أمرَ أخيك على أحسنه؛ حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من مسلم شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا، ومن تعرَّض للتُّهمة فلا يلومنَّ من أساء به الظنَّ، ومن كتم سرَّه كانت الخيرة في يديه، وعليك بإخوان الصِّدق، فعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرَّخاء وعدَّة في البلاء، وعليك بالصِّدق وإن قتلك الصِّدق، ولا تَعْرِض لما لا يعنيك، ولا تسأل عما لم يكن، فإنَّ فيما كان شغلًا عما لم يكن، ولا تطلبنَّ حاجتَك إلى من لا يحب لك نجاحها، ولا تصحبنَّ الفاجر فتعلَّمَ فجورَه، واعتزل عدوَّك واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله، وتخشَّعْ عند القول وذلَّ عند الطَّاعة، واعتصم عند المعصية، واستشر في أمرك الذين يخشون الله؛ فإنَّ الله يقول: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [سورة فاطر: ٢٨]، وقال لقمان لابنه: "يا بنيَّ، إذا أردت أن تواخي رجلاً؛ فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه، وإلَّا فدعه"".

ولقد أجاد القائل:

إذا كان ودُّ المرء ليس بزائد *** على مرحبا أو كيف أنت وحالكَ
أو القولِ إنّي وامقٌ لك حافظ *** وأفعالُه تبدي لنا غير ذلكَ
ولم يك إلا كاشرًا أو محدِّثًا *** فأفٍّ لودٍّ ليس إلا كذلكَ
ولكنْ إخاء المرء من كان دائما *** لذي الود منه حيثما كان سالكا

ومن هنا يتبيَّن؛ أنه ليس من السُّرور شيء يعدل صحبةَ الإخوان، ولا غمٌّ يعدل غم فقدهم، فعليك أن تتوقَّى جهدَك مفاسدةَ من صافيت، ومباغضة من وادتَّ، وخير الإخوان من إذا عظَّمته صانك، ولا يعيب أخاه على الزَّلة، فإنَّه شريكه في الطبيعة، بل عليه أن يصفح عنه ويتنكَّب محاسدة الإخوان، لأنَّ الحسد للصَّديق من سقم المودَّة، كما أنَّ الجود بالمودَّة أعظم البذل، لأنَّه لا يظهر ودٌّ صحيح من قلب سقيم، وليحذر المرء في

إخائه أَلَمَ التَّثقيل على أخيه، لأنَّ من ثقل على صديقه، خفَّ على عدوِّه، وإنَّ من أعظم المعونة على تسرية الهمِّ الرِّضا بالقضاء وملاقاة الإخوان، وفي هذا قال شاعر:

وأكثرنَّ من الإخوان إنهُمُ *** خيرٌ لكانزهم كنزًا من الذَّهب
كم من أخٍ لك لو نابتك نائبةٌ *** وجدتَّه لك خيرًا من أخ النسب

وقال الآخر:

مِن خيرِ ما حزته ودٌّ لذي كرم *** يجزيك ما عشت بالإحسان إحسانًا
تلقى بشاشته في قربه وإذا *** أنال نالك منه البرُّ ما كانا

وقيل: "المروءة مروءتان؛ فللسَّفر مروءة، وللحضر مروءة، فأما مروءة السَّفر؛ فبذل الزاد وقلة الخلاف على أصحابك، والمزاح في غير مساخط الله، وأمَّا مروءة الحضر؛ فالإدمان إلى المساجد، وكثرة الإخوان في الله، وتلاوة القرآن".

يا عبد الله، صاحب أهل الدِّين وصافهم، واستفد من أخلاقهم وأوصافهم، واسكن معهم بالتأدُّب في دارهم، وإن عاتبوك فاصبر ودارِهم، كيف بك وأنت في وقت الغنائم نائم، وقلبك في شهوات البهائم هائم؟! إن صدقت في طِلابِهم فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر، تعرَّض لنفحاتِ وكرمِ من أعطاهم، وسل فمولاك مولاهم؛ ولقد أجاد القائل وأفاد:

أحسنْ إلى النَّاس تستعبدْ قلوبَهُمُ *** فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
وكن على الدَّهر مِعوانًا لذي أملٍ *** يرجو نداك فإنَّ الحرَّ معوانُ
واشدد يديك بحبل الدِّين معتصمًا *** فإنَّه الرُّكن إنْ خانتك أركانُ
من يتق الله يُحمَدْ في عواقبهِ *** ويكفِهِ شرَّ مَن عزُّوا ومن هانوا
من استعان بغير الله في طلبٍ *** فإنَّ ناصرَه عجزٌ وخذلانُ
من كان للخير منَّاعًا فليس له *** على الحقيقة إخوانٌ وأخدانُ
كن ريِّقَ البِشرِ إنَّ الحرَّ همَّتُه *** صحيفة وعليها البشرُ عنوانُ

أحسنْ إذا كان إمكانٌ ومقدرةٌ *** فلن يدوم على الإنسان إمكانُ

من يزرعِ الشَّرَّ يحصدْ في عواقبه *** ندامةً ولحصد الزَّرع إبَّانُ

حسب الفتى عقله خِلًّا يعاشره *** إذا تحاماه إخوان وخلَّانُ

لا تحسبنَّ سرورًا دائمًا أبدًا *** مَن سرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ

وكلُّ كسرٍ فإنَّ الله يَجبُرُهُ *** ومَا لكسر قناةِ الدِّين جبرانُ

إذا جفاك خليلٌ كنتَ تألفه *** فاطلبْ سواه فكلُّ النَّاس إخوانُ

وإن نَبَتْ بك أوطانٌ نشأتَ بها *** فارحلْ فكلُّ بلاد الله أوطانُ

هـذا؛ وصـلِّ -اللهُ- وسـلِّم على نبيِّنـا محمَّـد وعلى آلـه وصحبه أجمعين، والحمـد لله ربِّ العالمين.

الحلقة الثانية: لزوم الصِّدق ومجانبة الكذب

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على الصَّادق الأمين نبيِّنا محمَّد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد؛

قال الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)} [سورة المائدة]، وقال الله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)} [سورة التوبة]، قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا. وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا) [رواه البخاري]، وقال رسول الله ﷺ: (لَا يَحِلُّ الْكَذِبُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: كَذِبُ الرَّجُلِ امْرأَتَهُ لِيُرْضِيَهَا، وَالْكَذِبُ فِي الْحَرْبِ، وَالْكَذِبُ لِيُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ) [رواه أحمد والترمذي[١]].

اعلم -يا عبد الله- أنَّ الكذب يبطل الحقَّ ويردُّ الصِّدق، فلا تتهاونَّ بإرسال الكذبة في الهزل وغيره؛ فإنها تسرع في إبطال الحق ورد الصِّدق مما تأتي به، فلا تكذبنَّ لكي تتملَّق إخوانك بخلق حتى تتقرَّب بذلك إلى أصحاب الأمر بتصويب رأي ضعيف، أو إقرارك له بذلك إذا مدحه به مادح، بل إن استطعت أن تعرِّف صاحبَك أنه على زلل؛ فافعل -

[١] قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ لا نَعْرِفُهُ من حديثِ أَسْمَاءَ إلَّا من حديثِ ابنِ خُثَيْمٍ.

أصلحني وإياك الله-؛ فإنَّ الذي أنت مأخوذ به هو أكثر مما أنت آخذ منه بأضعاف مضاعفة.

يا عبد الله، إيَّاك أن تكذب؛ لأنَّ الكذَّاب لا يكون أخًا صادقًا؛ فالكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه، وإنما سمِّي الصَّديق من الصِّدق، وقد يتَّهم صدق القلب وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان؟! وإنَّ الشرير يكسب كالعدو، ولا حاجة لك في صداقةٍ تجلب العداوة.

ويَظهَر الصِّدق من الكذب عند العمل؛ فالصِّدق ليس بكثرة النَّفقة، ولا بكثرة الكلام، ولا يحتاج فيه إلى تحريك الشَّفتين؛ ولكن بالإيمان واليقين وحسن التَّدبير في ظاهر أمر العبد وباطنه، فعليك أن تتعرَّف الصِّدق وتعرف ضدَّه من الكذب، وأن تتعرَّف الخير وتعرف ضدَّه من الشَّر، فتعمل في إثبات الصِّدق ونفي ضدِّه، وأن تتعلَّم الأصل من الفرع ليكون الشُّغل في إثبات الصِّدق من وجه الأصل؛ فإنَّ الأصل تخرج منه الفروع، وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل؛ فليس لشغله فناء ما دام الأصل ثابتًا، فكلما ذهب فرع أخلف فرعًا آخر بدلًا عنه.

واعلم -يا رعاك الله- أنَّ الكذب من عيوب النَّفس، ومداواة ذلك بترك الاشتغال برضا الخلق وسخطهم؛ فإنَّ الذي يحمل صاحب الكذب على الكذب هو طلب رضا النَّاس أو التزيُّن لهم وطلب الجاه عندهم؛ وقد قال الله -تعالى وهو أصدق القائلين-: {ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)} [سورة آل عمران]، وقال -تعالى-: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} [سورة النحل: ١٠٥]، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ) [حديث صحيح[١]]، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله -تعالى-: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} [سورة البقرة: ٤٢]، قال: أي: لا تخلطوا الصِّدق بالكذب.

[١] رواه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقيل في منثور الحكم: "الكذاب لِصٌّ؛ لأنَّ اللص يسرق مالك، والكذاب يسرق عقلك"، وقال بعض الحكماء: "الخرس خير من الكذب، وصدق اللسان أول السَّعادة"، وقال بعض البلغاء: "الصَّادق مصان خليل، والكاذب مهان ذليل"، وقال بعض الأدباء: "لا سيفَ كالحقِّ، ولا عونَ كالصِّدق".

وقال بعض الشُّعراء:

وما شيءٌ إذا فكَّرت فيه *** بأذهبَ للمروءة والجمالِ
من الكذب الذي لا خير فيه *** وأبعد بالبهاء من الرِّجالِ

والكذب جماعُ كلِّ شر، وأصل كل ذمٍّ؛ لسوء عواقبه وخبث نتائجه؛ لأنَّه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة؛ ولذلك قيل: "من قلَّ صدقه قلَّ صديقه"، والصِّدق والكذب يدخلان الأخبارَ الماضية، كما أنَّ الوفاء والخُلف يدخلان المواعيدَ المستقبليَّة، فالصِّدق هو الإخبار عن الشَّيء على ما هو عليه، والكذب هو الإخبار عن الشَّيء بخلاف ما هو عليه، ولكلِّ واحد منها دواعٍ؛ فدواعي الصِّدق لازمة، ودواعي الكذب عارضة؛ لأنَّ الصِّدق يدعو إليه عقل موجب وشرع مؤكَّد؛ فالكذب يمنع منه العقل ويصدُّ عنه الشَّرع.

ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصَّادقة حتَّى تصير متواترة، ولم يجز أن تستفيض الأخبار الكاذبة؛ لأنَّ اتفاق الناس في الصِّدق والكذب إنما هو لاتفاق الدواعي؛ فدواعي الصِّدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها، حتى إذا تلقَّوا خبرًا، وكانوا عددًا ينتفي عن مثلهم المواطأة؛ وقع في النفس صدقه؛ لأنَّ الدَّواعي إليه نافعة، واتفاق الناس في الدَّواعي النافعة ممكن.

ولا يجوز أن يتفق العدد الكثير الذي لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبًا؛ لأنَّ الدواعي إليه غير نافعة وربما كانت ضارة، وليس في جاري العادةِ أن يتفق الجمع الكثير على دواعٍ غير نافعة.

ولذلك جاز اتفاق النَّاس على الصِّدق لجواز اتفاق دواعيهم، ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم، وإذا كان للصِّدق والكذب دواعٍ؛ فلا بدَّ من ذكر ما سنح به الخاطر من دواعيهما.

أمَّا دواعي الصِّدق؛ فمنها العقل؛ لأنه موجب لقبح الكذب، لا سيَّما إذا لم يجلب نفعًا ولم يَدفع ضَرَرًا، والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسنًا ويمنع من إتيان ما كان مستقبحًا، والدِّين يأمرك باتباع الصِّدق وحظر الكذب؛ لأنَّ الشَّرع ورد بحظر الكذب وإن جرَّ نفعًا أو دفع ضررًا، والعقل إنما حظر ما لا يجلب نفعًا ولا يدفع ضررًا.

ومن دواعي الصِّدق المروءة؛ فإنها مانعة من الكذب باعثة على الصِّدق؛ لأنها قد تمنع مَن فعل ما كان مستكرهًا، فأولى مَن فعل ما كان مستقبحًا.

ومنها: حب الثَّناء والاشتهار بالصِّدق، حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم؛ وقد قال بعض البلغاء: "ليكن مرجعك إلى الحقِّ، ومَنزَعُك إلى الصِّدق؛ فالحق أقوى معين، والصِّدق أفضل قرين".

وقال بعض الشُّعراء:

عوِّد لسانك قول الصِّدق تحظَ به *** إنَّ اللسان لما عوَّدت معتادُ
مُوكَّل بتقاضي ما سننتَ له *** في الخير والشَّر فانظر كيف ترتادُ

وصلِّ -اللَّهم- وسلم على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الثالثة: الحياء

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)} [سورة الأحزاب].

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من عذراءَ في خدرها، وكان إذا كره شيئًا رُئي ذلك في وجهه؛ وقال النبي ﷺ: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)[١]، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)[٢].

أيُّها المؤمنون، نعم الحياء خُلُقًا يخفي زلَّاتِنا، وثوبًا يستر عوراتِنا، وطريقًا يوصلنا إلى غاياتنا، ونعم صاحب الحياء الذي لا يخلو بحرام، ولا يدعو إلى حرام، ولا يسير إلى حرام أبدًا ولو كان في ذلك حتفُه، ويقطع الخواطرَ الشَّيطانيَّة والأطماع الفاجرة، ويكفُّ الأعين الخائنة، ويدفع الأذى بالخلق الحسن، ويتورَّع عن الفواحش، ويخشى مرافقة أهل السُّوء، ويبتعد عن مهاوي الدَّنس والرِّيبة والشَّكِّ، وغيرها من الخطراتِ الشَّيطانيَّة.

والحياء مأخوذ من الحياة؛ فلا حياة بدونه، وهو خلق يودعه الله في النُّفوس التي أراد -سبحانه- تكريمها، فيبعث على الفضائل ويدفع في وجوه الرَّذائل، وهو من خصائص الإنسان وخصالِ الفطرة وخلقِ الإسلام، والحياء شعبة من شعب الإيمان، وهو محمودُ

---

[١] رواه البخاري.

[٢] رواه البخاري.

خصالِ العرب التي أقرَّها الإسلام ودعا إليها ورسَّخها في الأمَّة الإسلاميَّة؛ فهذا عنترة العبسي الجاهلي يستحي أن ينظر إلى جارته عند خروجها من بيتها حياءً:

وأغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي *** حتَّى يواري جارتي مأواها

فإذا كان هذا من الجاهليَّة الجهلاء؛ فهو من صميم أخلاق الإسلام الشَّمَّاء، فآل مفعول الحياء إلى التَّحلي بالفضائل وإلى سياج رَّادع يصدُّ النفسَ ويزجرها عن تطوُّرها وتورُّطها في الرَّذائل.

وأنتِ أيتها المسلمة العفيفة الحيِيَّة، لقد أكرمكِ الإسلام، وأعاد لكِ حقوقكِ وزيَّنك بالعفَّة والحشمة، وفرض عليكِ الحجاب وسيلةً فعَّالةً لحفظ الحياء، وخلع الحجاب خلعٌ للحياء؛ فالحجاب يمنع نفوذ التبرُّج والسُّفور والاختلاط إلى مجتمعات أهل الإسلام، وهو حصانة ضدَّ الزِّنا والإباحيَّة، فلا تكون المرأة إناءً لكل والغ، ولا سلعةً لكل مشترٍ، فالحياء هو الحياة، وإذا ذهب الحياء فلا خير في الحياة، وصدق من قال:

فلا والله ما في العيش خيرٌ *** ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياءُ

إذا لم تخش عاقبة اللَّيالي *** ولم تستحْيِ فاصنعْ ما تشاءُ

قال النبي ﷺ: (الْحَيَاءُ لا يَأتي إلاّ بِخَيْرٍ)[١]، وقال: (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ)[٢]، وقال: (وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)[٣]، وعلى هذا؛ فإنَّ الحياء الذي يكون حائلًا دون الوقوع بالمعصية هو الحياء النَّابع من خشية الله -عز وجل-؛ لذلك كلِّه عمد إبليس على تحطيم ذلك الحاجز الذي يمنع من الوقوع في المعصية، فأغرى بنزع اللِّباس الذي كان يُواري آدمَ وزوجَه؛ ليوريهما سوآتهما.

إنها لَلمسة من لمسات الرَّحمة والحبِّ لهذا المخلوق، وشعور بالعطف عليه، متمثِّلة في نداء الله -عز وجل- للبشر جميعًا وليس للمسلمين خاصَّة، وهو يناديهم ويحذِّرهم من

---

[١] رواه البخاري.

[٢] رواه ابن ماجه، قال الأرنؤوط: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف معاوية بن يحيى، ورَوَاهُ مَالِكٌ مُرْسلا.

[٣] رواه البخاري ومسلم.

الوقوع في فتنة الشَّيطان؛ قال الله -تعالى-: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا} [سورة الأعراف: ٢٧].

كيف يندى جبينُ من غاض منه *** كلُّ ماءٍ، وغار كلُّ حياءِ
من لستر الحياء يهتكه الغرّ *** ويثري في جوفه كالدَّاءِ
ذهب الودُّ والحياءُ جميعًا *** لهفَ أرضي عليهما وسماءِ
وغبيُّ الأنامِ من ظنَّ أنَّ *** الزَّرع يزكو في التُّربة المضماءِ
إنَّ داء القلوب داءٌ عياء *** مثلَ داء المنونِ للأحياءِ

وقيل: "الحياءُ يزيد في النبل".

وقال آخر:

إذا حُرِمَ المرءُ الحياءَ فإنَّه *** بكل قبيح كان منه جديرُ
له قحةٌ في كل أمر وسرُّه *** مباحٌ وجدواه جفًا وسرورُ
يرى الشَّتم مدحًا والدناءةَ رفعةً *** وللسَّمع منه في العظات نفورُ
فرجِّ الفتى ما دام حيًا فإنَّه *** إلى خير حالات المنيب يصيرُ

فالحياء هو اللباس السَّابغ، والحجاب الواقي، والسِّتر من المساوئ، وهو أخ العفاف، وحليف الدِّين، والرَّقيب من العصمة، والعين الكالئة، والذَّأد عن الفساد، والنَّاهي عن الفحشاء والأدناس، فلا يزال الوجه كريمًا ما بقي حياؤه، وما يزال الغصن نظيرًا ما بقي لحاؤه.

فالوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء؛ فرونق صفحة الوجه يكون عند الحياء كصفحة السَّيف عند الجلاء، وما المتبختر في وشي ردائه بأحسنَ من المتقارب في قيد حيائه؛ قال الشَّاعر:

ولا تعْجلْ على أحد بظلم *** فإنَّ الظُّلم مرتعه وخيمُ
ولا تفحشْ وإن أُغضِبت غيظًا *** على أحد فإنَّ الفحش لومُ

ولا تقطع أخاك لأجل ذنب *** فإن الذَّنب يغفره الكريمُ
وما قتل السَّفاهة مثل حلم *** يعود به على الجهل الحليمُ
إذا استُودعت سرًّا فاكتُمَنْهُ *** فخير زواملِ السر الكتومُ

وقال آخر:

ومطهّر الأخلاقِ قد نصر الدِّيانة بالحياء *** مترفِّعًا عن زبرج الدُّنيا القريب من الفناء

فعليك بالحياء والأنفة؛ فإنَّك إن استحييتَ من الغضاضة اجتنبْتَ من الخساسة، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدَّمك أحدٌ في مرتبة.

وقيل: "أحيِ حياءَك بمجالسة من يستحي"، وقيل: "من جمع بين الحياء والسَّخاء؛ فقد أجاد وارتدى أثواب الفخار"، قال الشَّاعر:

وأوجه فتيانٍ حياءً تلثَّموا *** عليهنَّ لا خوفًا من الحرِّ والبردِ
وليس حياء الوجه في الذِّئب شيمة *** ولكنه من شيمة الأسد الورد

وقال آخر:

كريم بغضِّ الطَّرف فرط حيائه *** ويدنو وأطرافُ الرِّماح دوامُ

وقال آخر:

يتلقَّى النَّدى بوجه حييّ *** وسيوف العدا بوجه وقاحْ

الحلقة الرابعة: حفظ اللِّسان

الحمد لله وكفى، والصَّلاة والسَّلام على النَّبي المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين واقتفى، أمَّا بعد؛

قال الله -عز من قائل-: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)} [سُورَةُ قٓ].

وقال رسول الله ﷺ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)[١].

على الإنسان أن يبلغ مجهوده في حفظ اللِّسان حتى يستقيم له، إذِ اللِّسان هو المورِد للمرء مواردَ العطب، والصَّمت يكسب المحبَّة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والرُّجوع من الصَّمت أحسن من الرُّجوع عن الكلام، والصَّمت منام العقل والمنطق يقظته، قال لقمان الحكيم: "إنَّ مِن الحكم الصَّمت، وقليلٌ فاعلُه".

وفي هذا قال الشَّاعر:

أقللْ كلامَك واستعذْ من شرِّه *** إنَّ البلاء ببعضه مقرونُ
واحفظْ لسانك واحتفظْ من غيِّه *** حتى يكون كأنَّه مسجونُ
وكِّل فؤادك باللِّسان وقل له *** إنَّ الكلامَ عليكما موزونُ
فَزِنَاهُ وَلْيَكُ محكمًا ذا قلَّةٍ *** إنَّ البلاغة في القليل تكونُ

[١] متفق عليه.

قال مالك بن أنس: "كلُّ شيءٍ يُنتفَع بفضله إلا الكلام؛ فإنَّ فضله يضرُّ"، قال أبو الدَّرداء: "لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين: منصتٌ واعٍ أو متكلمٌ عالم"؛ فذو الحكمة والتجربة لا يغالب الناس على كلامهم، ولا يعترض عليهم فيه؛ لأنَّ الكلام إذا كان في وقته فهو حظوة جليلة، كما أنَّ الصَّمت في وقته مرتبة عالية، ومن جهل بالصَّمت عيَّ بالمنطق.

ولقد رُفِعَت مكانةُ جارحةِ اللِّسان، فكانت أعظمَ أجرًا إذا أطاعت، وأعظمَ ذنبًا إذا جنت؛ قال الشَّاعر:

لئن كان يجني اللَّوم ما أنت قائلٌ *** ولم يك منه النَّفع فالصَّمتُ أيسرُ
فلا تبدِ قولًا من لسانك لم يرد *** مواقعه من قبل ذاك التَّفكُّرُ.

قال ابن المبارك:

تعاهدْ لسانك إنَّ اللِّسان *** سريعٌ إلى المرء في قتلهِ
وهذا اللِّسان بريد الفؤاد *** يدلُّ الرِّجال على عقلهِ.

روي عن الفضيل بن عياض أنَّه قال: شيئان يقسِّيان القلب؛ كثرة الكلام وكثرة الأكل، وقال سفيان الثَّوري: أول العبادة الصَّمت، ثم طلب العلم، ثم العمل به، ثم حفظه، ثم نشره، وقال الأحنف بن قيس: الصَّمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبةٌ لصاحبه.

يا عبد الله، ما أجمل أن تلزم الصَّمت إلى أن يلزمك التكلُّم! فما أكثر من ندم إذا نطق! وما أقل من يندم إذا سكت! فأطول الناس شقاءً وأعظمهم بلاءً هو من ابتلي بلسان مطلق وفؤاد مطبق؛ فاللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، وأن يضع كل خصلة منها في موضعها:

فاللِّسان أداة يظهر بها البيان، وشاهدٌ يخبر عن الضَّمير، وناطق يُردُّ به الجواب، وحاكم يُفصَل به الخطاب، وواصف تُعرَف به الأشياء، وحاصدٌ تذهب به الضَّغينة، ونازع يجذب المودَّة، ومسلٍّ يذكي القلوب، ومعزٍّ تُردُّ به الأحزان.

ولقد أحسن الذي يقول:

إنْ كان يعجبك السُّكوت فإنَّه *** قد كان يعجب قبلك الأخيارَ
ولئن ندمتَ على سكوتٍ مرَّةً *** فلقد ندمتَ على الكلامِ مرارًا
إن السُّكوت سلامة ولربَّما *** زرع الكلام عداوةً وضرارًا
وإذا تقرَّب خاسرٌ من خاسرٍ *** زادَ بذاكَ خسارةً وتبارًا

وقال أحدُ الحكماء لصاحبه: "ألا أخبرك ببيت شعر هو خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم؟" قال: نعم، قال: "أيما أحبُّ إليك نفسك أو عشرة آلاف درهم؟"قال: قلت: نفسي، فأنشأ يقول:

اخفض الصَّوت إذا نطقتَ بليلٍ *** والتفتْ بالنَّهار قبلَ المقالِ.

وجميلٌ بك -يا عبد الله- أن تكون ناطقًا كعي، وعالمًا كجاهل، وساكتًا كناطق؛ لأنَّ الكلام لا بدَّ له من الجواب، والجواب لو جُعِل له جواب لم يكن للقول نهاية، ولخرج المرء إلى ما ليس له غاية، والمتكلِّم لا يسلم من أن يُنسَب إليه الصَّلف والتكلُّف، والصَّامت لا يليق به إلا الوقار وحسن الصَّمت.

قال عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنه-: "يا أحنف، من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه"، ولقد أحسن الذي يقول:

ما ذلَّ ذو صمتٍ وما من مكثرٍ *** إلا يزلُّ وما يعاب صموتُ
إن كان منطقُ ناطقٍ من فضَّةٍ *** فالصَّمت درٌّ زانه الياقوتُ

وقال أحد الواعظين: "جعل الله لكل شيء بابين، وجعل لِلّسان أربعة؛ فجعل الشفتين مصراعين، والأسنان مصراعين"، روي أنَّ شابًّا كان يحضر مجلس عمر بن الخطَّاب ويحسن الاستماع، ثم ينصرف من قبل أن يتكلَّم، ففطِن له عمر، فقال له: "إنَّك تحضر مجلسنا وتحسن الاستماع، ثم تنصرف من قبل أن تتكلَّم"، فقال الشَّاب: "إني أحضر فأتوقَّى وأتنقَّى، وأصمت فأسلم"، ولله درُّ القائل:

لسان الفتى حتف الفتى حين يجهلُ *** وكلُّ امرئٍ ما بين فكَّيه مقتلُ
وكم فاتح أبواب شَرٍّ لنفسه *** إذا لم يكن قفلٌ على فيه مُقفَلُ
إذا ما لسان المرء أكثر هذرَهُ *** فذاك لسانٌ بالبلاء موكَّلُ
إذا شئتَ أن تحيا سعيدًا مسلَّمًا *** فدبِّر وميِّز ما تقولُ وتفعلُ.

وقال آخر:

أرى الصَّمت خيرًا من كلامٍ بمأثم *** فكن صامتًا تسلمْ وإن قلتَ فاعدلِ
ولا تك في حقِّ الإخاء مفرِّطًا *** وإنْ أنت أبغضتَ البغيضَ فأجملِ
ولا تعجلنْ يومًا بشرٍّ تريده *** وإذْ ما هممتَ الدَّهر بالخير فاعجلِ
ألا إنَّ تقوى الله خير مغبَّة *** وأفضل زاد الظَّاعن المتحمِّل.

وقال آخر:

عوِّدْ لسانك قول الصِّدق تحظَ به *** إنَّ اللِّسان لما عوَّدت معتادُ

وقال أحد الحكماء: "إذا تمَّ العقل نقص الكلام، ففضل العقل على المنطق حكمة، وفضل المنطق على العقل هجنة"، وقال عمرو بن العاص -رضي الله عنه-: "زلَّة الرَّجل عظمٌ يُجبَر، وزلة اللِّسان لا تبقي ولا تذر"، وقال أعرابي:

عثرات اللِّسان لا تستقالُ *** وبأيدي الرجال تجزي الرِّجالُ
فاجعل العقل لِلّسان عقالًا *** فشراد اللِّسان داء عضالُ
إن ذمَّ اللسان مُبقٍ على *** العرض وبالقول تستبان الفعالُ

وقال غيره:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه *** وليس يموت الرَّجُلُ من عثرةِ الرِّجْلِ
فعثرته من فيه ترمي برأسه *** وعثرته بالرِّجل تَبْرَا على مهلِ

واعلم -هداني الله وإياك- أنَّ على المرء أن يُنصِف أذنيه مِن فيه، ويعلمَ أنه إنما جُعِلَت له أذنانِ وفمٌ واحد ليسمع أكثر مما يقول؛ لأنَّه إذا قال ربما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على ردِّ ما لم يقل أقدر منه على ردِّ ما قال، والكلمةُ إذا تكلَّم بها مَلَكَتْه، وإن لم يتكلَّم بها ملكها.

والعجبُ ممن يتكلَّم بالكلمة، إنْ هي رُفِعَت ربما ضرَّت، وإن لم ترفع لم تضرَّه، كيف لا يصمت ورب كلمة سَلَبَت نعمة! قال أبو الدَّرداء -رضي الله عنه-: "كفى بك ظالمًا ألا تزال مخاصمًا، وكفى بك آثمًا ألا تزال ماريًا، وكفى بك كاذبًا ألا تزال محدِّثًا إلا حديثًا في ذات الله -تبارك وتعالى-".

قال كعب -رضي الله عنه-: "العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في السُّكوت"، وعن شعبة -رحمه الله- قال: "مِن النَّاس مَن عقله بفنائه، ومنهم مَن عقله معه، ومنهم مَن لا عقل له، فأمَّا الذي عقله معه؛ فهو الذي يبصر ما يخرج منه قبل أن يتكلَّم، وأمَّا الذي عقله بفنائه؛ فهو الذي يبصر ما يخرج بعد أن يتكلَّم، ومنهم مَن لا عقل له"، وقد أجاد القائل:

أنتَ من الصَّمت آمنُ الزَّلِلِ *** ومِن كثير الكلام في وجلِ
لا تقل قولًا ثم تتبعُهُ *** يا ليتَ ما كنتُ قلتُ لم أقُلِ

روي عن الأوزاعي أنه قال: "ما بُلِي أحدٌ في دينه ببلاء أضرَّ عليه من طلاقة لسانه"، وقيل: "السُّكوت زينٌ للعاقل، وشينٌ للجاهل"، وقيل أيضًا: "لو لم يكن في الصَّمت خصلة تُحمَد إلا تزيين العاقل وتقبيح الجاهل؛ لكان الواجب على المرء أن لا يفارقه الصَّمت ما وجد إليه سبيلًا"، ومن أحبَّ السَّلامة مِن الآثام؛ فليقلْ ما يقبل منه، وليقللْ مما يقبل منه؛ لأنَّه لا يجترئ على الكلام الكثير إلا فائقٌ أو مائق.

وقال أحدُ الحكماء: "لسان العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد القول رجع إلى القلب، فإن كان له قال، وإلَّا فلا، والجاهل قلبه في طرف لسانه، ما أتى على لسانه تكلَّم به واللسان إذا صلح، تبيَّن ذلك على الأعضاء، وإذا فسد فكذلك"، وقيل: "ما صلح منطق رجل إلا عُرِفَ ذلك في سائر أعماله"، فالعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأَل، ولا يقول إلا لمن يقبل، ولا يجيب إذا شُوتم، ولا يجازي إذا أسمع، لأنَّ الابتداء بالصَّمت وإن كان حسنًا؛ فإنَّ السَّكوت عند القبيح أحسن منه.

إذا لم يَضِقْ قوْلٌ عَلَيكَ فقل بهِ *** وَإن ضَاق عنكَ القوْلُ فالصَّمتُ أوسعُ
ولا تَحتَقِرْ شَيئًا تَصاغَرْتَ قدرَه *** فإنَّ حَقيرًا قد يَضُرّ ويَنْفَعُ

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "والله الذي لا إله غيره، ما شيء أحقُّ بطول سجن من لسان"، فالحكيم هو الذي يحفظ أحواله من ورود الخلل عليها في الأوقات، وإنَّ من أعظم الخلل المفسد لصحَّة السَّرائر والمذهب لصالح الضَّمائر هو الإكثار من الكلام وإن أبيح له كثرة النُّطق، ولا سبيل للمرء إلى رعاية الصَّمت إلا بترك ما أُبيح له من النطق.

فالواجب على المرء أن يروِّض نفسه على ترك ما أُبيح له من النطق؛ لئلا يقع في المزجورات، فيكون حتفه فيما يخرج منه؛ لأنَّ الكلام إذا كثر أورث صاحبه التَّلذُّذ بضدِّ الطَّاعات، فإذا لم يوفَّق العبد لاستعمال اللِّسان فيما يجدي عليه نفعه في الآخرة، كان وجود الإمساك عن السُّوء أولى به، وفي هذا قال الشَّاعر:

وَلَن يَهْلَكَ الْإِنسَانُ إِلَّا إِذَا أَتَى *** مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَرْضَهُ نُصَحَاؤُهُ
وَأَقْلِلْ إِذَا مَا قُلْتَ قَوْلًا فَإِنَّهُ *** إِذَا قَلَّ قَوْلُ الْمَرْءِ قَلَّ خِطَاؤُهُ

وقيل: "سياسة البلاغة أشدُّ من البلاغة، كما أنَّ التوقِّي على الدَّواء أشدُّ من الدَّواء"، وكانوا يأمرون بالتبيُّن والتثبُّت، وبالتحرُّز من زلل الكلام، ومن زلل الرَّأي، ومن الرَّأي الدَّبري، والرأي الدَّبريُّ هو الذي يَعرِض من الصَّواب بعد مضي الرَّأي الأوَّل وفوت استدراكه، وكانوا يأمرون بالتحلُّم والتعلُّم وبالتقدُّم في ذلك أشدَّ التقدُّم.

وقد قال عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنه-: "تفقَّهوا قبل أن تسودوا"، يُروَى عن عيسى بن مريم -عليه السَّلام- أنَّه قال: "البرُّ ثلاثة: المنطق والنَّظر والصَّمت، فمن كان منطقه في غير ذكرٍ فقد لغا، ومن كان نظره في غير اعتبارٍ فقد سهى، ومن كان صمته في غير فكرٍ فقد لَهَا"، وقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: "أفضل العبادة الصَّمت وانتظار الفرج"، وقال لقمان الحكيم: "إنَّ من الحكمة الصَّمت، وقليلٌ فاعلُه"، وقال أبو الدَّرداء -رضي الله عنه-: "أنصف أذنيك مِن فيك؛ فإنَّما جُعِل لك أذنان اثنتان وفم واحد؛ لتسمع أكثر ممَّا تقول"، وقيل: "فضل العقل على اللِّسان مروءة، وفضل اللِّسان على العقل هجنة"، وقالوا: "مَن ضاق صدره اتَّسع لسانه، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن ساء خلقه قلَّ صديقه"، وقيل: "صاحب الكلام بين إحدى منزلتين؛ إن قصَّر فيه خَصِم، وإن أغرق فيه أثم"، ومن سمع الكلمة يكرهها فسكت عنها، انقطع ضرُّها عنه.

وقد أحسن القائل:

الحلم زَينٌ والسُّكوت سلامةٌ *** فإذا نطقتَ فلا تكن مكثارًا

ما إنْ ندمتُ على سكوتي مرَّةً *** لكن ندمتُ على الكلام مرارًا

وقال آخر:

خلِّ جنبيك لرامي *** وامضِ عنه بسلامِ

متْ بداء الصَّمت خيرٌ *** لك مِن داء الكلامِ

رُبَّ لفظٍ ساقَ آجال *** فئام وفئامِ

إنما السَّالم مَن *** ألجم فاه بلجامِ

وقال بعض الحكماء: "حظِّي من الصَّمت لي، ونفعه مقصورٌ عليَّ، وحظِّي من الكلام لغيري ووباله راجع عليَّ"، وقالوا: "إذا أعجبك الكلام فاصمت"، وقال رجلٌ لعمرَ بنِ عبد العزيز: "متى أتكلَّم؟" قال: "إذا اشتهيتَ أن تصمت"، قال: "فمتى أصمت؟" قال: "إذا اشتهيتَ أن تتكلَّم"، وقال النبي ﷺ: "ما أُعطِي العبد شرًّا من طلاقة اللِّسان"، وقيل: "إنَّما

بعثتِ الأنبياءُ بالكلام ولم يُبعَثوا بالسُّكوت"، وبالكلام وُصِف فضل الصَّمت، ولم يُوصَف القول بالصَّمت، وبالكلام يُؤمَر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُعظَّم الله ويُسبَّح بحمده.

والبيان من الكلام هو الذي منَّ الله به على عباده، فقال: {خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)} [سورة الرحمن]، والعلم كلُّه لا يؤدِّيه إلى أوعية القلوب إلا اللِّسان، فنفع المنطق عامٌّ لقائله وسامعه ولمن بلَّغه، ونفع الصَّمت خاصٌّ بفاعله، وأعدل شيء قيل في الصَّمتِ والمنطقِ قولُهم: "الكلام في الخير كلِّه أفضل من الصَّمت، والصَّمت في الشَّرِّ كلِّه أفضل من الكلام"، وقالوا: "الصَّمت نوم، والكلام يقظة"، ولله درُّ القائل:

فالصَّمت يكسو صفوة المحبَّة *** يبعدُ عن صاحبه المسبَّة
والصَّمت قالوا فدليل العقلِ *** والصِّدق نُجحٌ ودليل الفضلِ
فكن صموتًا أو صدوقًا قائلًا *** فلم تزلْ عن العثار عادلًا
من كثر الدهر إذًا كلامهُ *** كثرت يومَ القضا آثامُه
إذا سكتَّ صامتًا عن جاهلِ *** حين أتاك بالكلام الباطلِ
قد قيل إنَّ الطَّعن باللِّسانِ *** أشدُّ من طعنك بالسِّنانِ
وقيل تبرأْ طعنةُ الحسامِ *** وليس يبرا الطَّعنُ بالكلامِ
لا شيء يأتي بالخير للإنسانِ *** كالحفظ للحقوق واللِّسانِ

الحلقة الخامسة: الحكمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وإمام المتَّقين، نبيِّنا محمَّد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد؛ قال الله -تعالى-: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)} [سورة البقرة].

وقال النبي ﷺ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، - وفي رواية: فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ-، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) [رواه البخاري]، وقال النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا) [حديث صحيح[١]].

فمحبَّة المرء لمكارم الأخلاق وكراهتُه سفسافَها هو الغاية، وبها يكون الحظ؛ فهي أنيس الغربة، وعنوان الصُّحبة، ولباس المهابة، ورسول المحبَّة، تنفي عنك أوجاع الفاقة؛ فلا مال أفضل من مكارم الأخلاق.

فمعالي الأخلاق تهديك إلى سبيلِ المعرفة وسلوكِ الصَّواب والعلمِ باجتناب الخطأ؛ فالمرء في أول درجته يسمى أديبًا ثمَّ أريبًا ثمَّ لبيبًا ثمَّ عاقلًا حكيمًا، كما أنَّ الرَّجل إذا دخل في أول حدِّ الدَّهاء، قيل له شيطان، فإذا عتى في الطُّغيان قيل مارد، فإذا زاد على ذلك قيل عبقريٌّ، فإذا جمع إلى خبثه شدَّةَ شر، قيل عفريت.

وكذلك الجاهلُ يُقال له في أوَّل درجته المائق ثمَّ الرَّقيع ثمَّ الأَنْوَك ثمَّ الأحمق، وأفضل مواهب الله لعباده دين يقيه، وحكمةٌ تدلُّه على مواطن الخير وتهديه، ولقد أحسن الذي يقول:

وأفضلُ قَسْمِ اللهِ للمرءِ عقلُهُ *** فليس من الخيراتِ شيءٌ يقاربُهْ

[١] رواه عبد الرزاق، والبيهقي، والحاكم وغيرهم. قال الحافظ العراقي: إسناده صحيح.

إذا أكمل الرحمن للمرء عقلَهُ *** فقد كملت أخلاقه ومآربُهْ
يعيش الفتى في الناس بالعقل إنَّهُ *** على العقل يجري علمه وتجاربُهْ
يزيد الفتى في الناس جودةُ عقلِهِ *** وإنْ كان محظورًا عليه مكاسبُهْ

وقد قيل لابن المبارك: ما خيرُ ما أُعطِي الرَّجل؟ قال: "غريزةُ عقل"، قيل: فإن لم يكن؟ قال: "أدبٌ حسن"، قيل: فإن لم يكن؟ قال: "أخٌ صالحٌ يستشيره"، قيل: فإن لم يكن؟ قال: "صمت طويل"، قيل: فإن لم يكن؟ قال: "موت عاجل".

فالواجب على الحكيم أن يكون بما أحيا عقله من الحكمة أكلفَ منه بما أحيا جسده من القُوت؛ لأنَّ قوتَ الأجسادِ الطَّعام، وقوت العقل الحِكَمُ، فكما أنَّ الأجساد تموت عند فقد الطَّعام والشَّراب، كذلك العقول إذا فقدت قوتها من الحكمة ماتت.

وعلى الحكيم أن يتقلَّب في الأمصار؛ زيادةً في الاستبصار والاعتبار؛ لكي يزداد بهما حكمة وتدبُّرًا، قال الشَّاعر:

إنَّ ذا العقل يرى غُنمًا لهُ *** عدمَ المالِ إذا ما العقلُ صح
ما على المرء بِعَدْمٍ سُبَّةٌ *** إنْ وفى العقلُ وإنْ دينٌ صَلُح

ما استودع الله العبدَ حكمةً إلا استنقذه بها يومًا ما، فالحكمة دواء القلوب، ومطيَّة المجتهدين، وبذر حراثة الآخرة، وتاج المؤمن في الدُّنيا، وعدَّته في وقوع النَّوائب، ومن عدم الحكمةَ لم يزده السُّلطان عزًّا، ولا المال يرفعه قدرًا، ولا حكمةَ لمن أغفله عن أخراه ما يجد من لذَّة دنياه.

والحكمة والهوى متعاديان؛ فالواجب على المرء أن يكون لرأيه مسعفًا ولهواه مسوِّفًا، فإذا اشتبه عليه أمران؛ اجتنب أقربهما من هواه؛ لأنَّ في مجانبته الهوى إصلاحَ السَّرائر، وبالتَّفكُّر والتَّدبُّر تصلح الضَّمائر؛ قال معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- لرجلٍ من

العرب: "عُمِّر دهرًا، أخبرني بأحسن شيء رأيته"، قال: "عقلٌ طُلِبَ به مروءةٌ مع تقوى الله وطلبِ الآخرة".

وأنشد الشَّاعر:

إذا تمَّ عقل المرء تمَّت أمورهُ *** وتمت أياديه وتمَّ بناؤهُ
فإن لم يكن عقل تبيَّن نقصهُ *** ولو كان ذا مال كثيرًا عطاؤهُ

وأفضل ذوي العقول منزلةً أكثرهم مراقبةً لله، وأدومهم لنفسه محاسبة، وأقلُّهم عنها فترة، واعلم أنَّ الحكمة تعمر القلوب، كما أنَّه بالعلم تُستخرَج الأحلام؛ فالحكمة عمود السَّعادة، والحكيم مرجوٌّ خيره على كل حال، كما أنَّ قرب الجاهل مخوف شرُّه على كل حال، ولا يجب لذي حكمة أن يغتمَّ لأنَّ الغمَّ لا ينفع، وكثرته تزري بالعقل، ولا أن يحزن لأنَّ الحزن لا يردُّ المرزئة، ودوامه ينقص العقل، والحكيم يحسم الدَّاء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، فإذا وقع فيه رضي وصبر، وهو لا يخيف أحدًا أبدًا ما استطاع، ولا يقيم على خوف، وإذا خاف على نفسه الهوان؛ طابت نفسه عمَّا يملك من الطَّارف والتَّالد مع لزوم العفاف؛ قال الشَّاعر:

أولستَ تأمر بالعفاف وبالتُّقى *** وإليه آل الأمر حين يؤولُ
فإن استطعتَ فخذ بعقلك فضلَهُ *** إنَّ العقولَ يرى لها تفضيلُ

وصاحب الحكمة لا يغتمُّ إذا كان معدمًا؛ لأنَّه يرجو الغنى من الله وليس من الناس، فالحكمة والعمل رأس ماله، كما أنَّ الجاهل غناه في أملاكه وماله، وما له من شيء إلا سيِّء أعمالِه.

واعلم أنَّ آفة المرء هي الصَّلف والبلاء المُردِي والرَّخاء المفرط؛ لأنَّ البلايا إذا تواترت عليه أهلكت عقلَه، والرَّخاء إذا تواتر عليه أبطره، فلا ينفع الاجتهاد بغير توفيق الله، ولا الجمالُ بغير حلاوة الإيمان، ولا السُّرور بغير أمن الله، كذلك لا ينفع العقل بغير ورع، ولا

الحفظ بغير عمل، وكما أنَّ السُّرورَ تبع للأمن، والقرابةَ تبع للمودَّة؛ كذلك المروءات كلها تبع لمن كان صاحبَ بصيرة، وصاحب الحكمة لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأل، ولا يكثر التَّماري إلا عند القبول، ولا يسرع الجواب إلا عند التثبُّت، ولا يستحقر الحكيمُ أحدًا من الخلق، ولا يخفى عليه عيب نفسه؛ لأنَّ من خفي عليه عيب نفسه خفيت عليه محاسنُ غيرِه، وإنَّ من أشدِّ العقوبة للمرء أن يُخفَى عليه عيبُه؛ لأنه ليس بمقلعٍ عن عيبه من لم يعرفه! وليس بنائل محاسنَ الناس من لم يعرفها، ولقد أحسن القائل:

ألم تر أنَّ العقل زينٌ لأهلهِ *** وأنَّ كمال العقل طول التَّجاربِ
وقد وعظ الماضي من الدَّهر ذا النُّهى *** ويزداد في أيامه بالتَّجاربِ

وقد كانت العرب تقول: "الحكمة بالتَّجارب"، فالمرء لا يكون مصيبًا في الأشياء حتى تكون له خبرة بالتَّجارب؛ فالحكيمُ يكون حسنَ المأخذ في صغره، صحيحَ الاعتبار في صباه، حسنَ العفَّة عند إدراكه، رضيَّ الشَّمائل في شبابه، ذا رأي وحزم في كهولته، يضع نفسه دون غايته، ثم يجعل لنفسه غايةً يقف عندها؛ لأنَّ من جاوز الغاية في كل شيء صار إلى النَّقص، ولا تنفع الحكمة إلا بالاستعمال، كما لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة، ولا ينفع الرأي إلا بالانتخال، كما لا تتمُّ الفرصة إلا بحضور الأعوان، ومن لم تكن حكمته أغلبَ خصال الخير عليه؛ فإني أخاف أن يكون حتفه في أقرب الأشياء إليه، ورأس الحكمة مخافة الله ومحاولة المعرفة بما يمكن كونه قبل أن يكون.

واعلم -هداني وإياك الله- أنَّ الحكيم يجتنب أشياء ثلاثة تسرع في إفساد رأيه، وهي: الاستغراقُ في الضَّحك، وكثرة التَّمني، وسوء التثبُّت؛ لأنَّ المتبصِّر لا يتكلَّف ما لا يطيق، ولا يسعى إلا لما يُدرَك، ولا يَعِدُ إلا بما يقدر عليه، ولا يُنفِق إلا بقدر ما يستفيد، ولا يطلب من الجزاء إلا بقدر ما عنده من الغنى، ولا يفرح بما نال إلا بما أجدى عليه نفعه منه، وهو يبذل لصديقه نفسَه ومالَه، ولمعرفته رفدَه ومحضرَه، ولعدوِّه عدلَه وبرَّه، وللعامَّة بشرَه وتحيَّتَه، ولا يستعين إلا بمن يحبُّ أن يظفر بحاجته، ولا يحدِّث إلا من يرى حديثه مغنمًا إلا أن يغلبه الاضطرار عليه.

ولا يدَّعي ما يحسن من العلم؛ لأنَّ فضائل الرِّجال ليست ما ادَّعوها، ولكن ما نسبها النَّاس إليهم، ولا يبالي ما فاته من حطام الدُّنيا؛ قال الشَّاعر:

فمن كان ذا عقل ولم يك ذا غنى *** يكون كذي رِجْلٍ وليست له نعلُ
ومن كان ذا مال ولم يك ذا حجى *** يكون كذي نعل وليست له رِجْلُ

وكفى بصاحب الحكمة فضلًا -وإن عدم المال- بأن تُصرَفَ مساوئُ أعماله إلى المحاسن، فلا تكاد تراه إلا موقِّرًا للآخرين، ناصحًا للأقران، مواتيًا للإخوان، متحرِّزًا من الأعداء، غير حاسد للأصحاب ولا مخادعٍ للأحباب، ولا يتحرَّش بالأشرار، ولا يبخل في الغنى، ولا يَشرَه في الفاقة، ولا ينقاد للهوى، ولا يجمح في الغضب، ولا يمرح في الولاية، ولا يتمنَّى ما لا يجد، ولا يكتنز إذا وجد، ولا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يدلي بحجَّة حتى يرى قاضيًا، ولا يشكو الوجع إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يمدح أحدًا إلا بما فيه؛ لأنَّ من مدح رجلًا بما ليس فيه فقد بالغ في هجائه، ومن قبل المدح بما لم يفعله؛ فقد استُهدِف للسُّخريَة.

فالحكيم يُكرَّم على غير مال؛ كالأسد يهاب وإنْ كان رابضًا، وكلامه يعتدل كاعتدال جسد الصَّحيح، وكلام الجاهل يتناقض كاختلاط جسد المريض، وكلامه -وإن كان نزرًا- فهو حظوة عظيمة، كما أنَّ مقارفة المأثم -وإن كان نزرًا- فهو مصيبة جليلة؛ فصاحب الحكمة يتثبَّت في كل عمل قبل الدُّخول فيه، ويتريَّث قبل الحكم عليه، ويقلِّب فيه وجهاتِ النظر حتى يعرف ما له وما عليه، ويتجنَّب آفة العجب.

فالحكيم يوطِّن نفسه على الصَّبر على جارِ السُّوء وعشير السُّوء وجليس السُّوء؛ فإن ذلك مما لا يخطيه على مرِّ الأيام.

وأول تمكُّن المرء من مكارم الأخلاق هو لزوم الحكمة؛ قال الشَّاعر:

إنَّ المكارم أبوابٌ مصنَّفةٌ *** فالعقل أوَّلها والصَّمت ثانيهَا
والعلمُ ثالثها والحلمُ رابعها *** والجود خامسها والصِّدق ساديهَا

والصَّبر سابعها والشُّكر ثامنها *** واللِّين تاسعها والصِّدق عاشيها

فالحكمة هي أوَّل خصال الخير للمرء في الدُّنيا، وهي من أفضل ما وهب الله لعباده، فلا يجب أن يدنِّس الإنسانُ نعمةَ الله بمجالسة مَن هو بضدِّها قائم، وعليه أن يكون حسنَ السَّمت طويل الصَّمت؛ فإن ذلك من أخلاق الأنبياء، كما أنَّ سوء السَّمت وترك الصَّمت من شيم الأشقياء، وعليه أن لا يطوِّل أمله؛ لأنَّ من قوي أملُه ضعف عمله، ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله.

وأن لا يقاتل من غير عدَّة، ولا يخاصم بغير حجَّة، ولا يصارع بغير قوَّة؛ فإنَّ في ذلك حياة النفوس والأبدان وتنوير القلوب والأذهان، وهكذا تمضي الأمور إلى غايتها، وتسير الحياة وفق سننها وطبيعتها.

فالحكيم يقيس ما لم يرَ مِن الدُّنيا بما قد رأى، ويضيف ما لم يسمع منها إلى ما قد سمع، وما لم يُصِب منها إلى ما قد أصاب، وما بقي من عمره بما فني، وما لم ينل منها بما قد أُوتي، ولا يتَّكل على المال وإن كان في تمام الحال؛ لأنَّ المالَ يحلُّ ويرتحل، والحكمةَ تقيم ولا تبرح، ولو أنَّ الحكمة شجرة لكانت من أحسن الشَّجر، كما أنَّ الصَّبر لو كان ثمرة لكان من أكرم الثَّمر.

والحكيم يزداد بحكمته في نماء عقله بالتَّقرُّب من أشكاله والتَّباعد من أضداده، وقد قيل: "جالسوا الألبَّاء أصدقاءً كانوا أو أعداء؛ فإنَّ العقولَ تلقح"، فمجالسة الحكماء لا تخلو من أحد معنيين: إما تذكُّر الحالة التي يحتاج الحكيم إلى الانتباه لها، أو الإفادة بالشَّيء الخطير الذي يحتاج الجاهل إلى معرفته، فقرب الحكيم غنمٌ لأشكاله، وعبرةٌ لأضداده على الأحوال كلها.

ولا يجب لمن تسمَّى به أن يتدلَّل إلا على من يحتمل دلاله، وأن لا يُقبِل إلا على من يحبُّ إقباله، نسأل اللهَ أن يجعلنا ممن ألبسهم ثوب التَّقوى وجمال الحكمة، ونسأله أن يُسبِغ

علينا نعمَه وتسديدَه؛ لنسلك بتوفيقه إلى الخصال الحميدة التي تقرِّبنا إليه؛ إنَّه الفعَّال لما يريد، سبحانه عددَ ما نعرف وعددَ ما لا نعرف.

الحلقة السادسة: إفشاء السَّلام وإظهار البِشْر

قال الله -تعالى-: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) } [سُورَةُ الحَشْرِ].

عن أنس[١] -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ -تعالى- وضعه الله في الأرض، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ)[٢] [أي:] فأفشوا السَّلام بينكم، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُمْ علَى شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلامَ بيْنَكُمْ) [صحيح مسلم]، وقال ﷺ: (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ)[٣].

فبالسَّلام تذهب الشَّحناء، وتزول البغضاء، وينقطع التَّباعد والهجران، ويتصافى الإخوان، والبادئ بالسَّلام بين حسنتين: إحداهما تفضيل الله -عز وجل- إياه على المسلَّم عليه بالفضل لتذكيره إياه بالسَّلام، وبين ردّ الملائكة عليه عند غفلته عن الرَّد.

فتلقَّ المسلمين بالسَّلام، وتبسَّمْ في وجوههم حتى تتحاتَّ عنك الخطايا كما تتحاتُّ أوراقُ الشَّجر في الخريف إذا يبس، فما أجمل أن تلقى أخاك بالبشر لتغنم محبَّته وتستخلص وُدَّه؛ ولقد صدق من قال:

أخ البشر محبوبٌ على حسن بشره *** ولن يعدم البغضاءَ من كان عابسًا

ويسرع بخل المرء في هتك عرضه *** ولم أر مثل الجود للمرء حارسًا

---

[١] لم يرو عن أنس رضي الله عنه. روي من طريق ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه عبد الرزاق وابن عدي من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] رواه البخاري في الأدب المفرد، والبزار في مسنده، وابن أبي شيبة في المصنف. ذكر غير واحد: صحيح الإسناد موقوفا وصح مرفوعا.

[٣] رواه مسلم.

وعليك -يا أخي- بالبشاشة؛ فإنها إدام العلماء وسجيَّة الحكماء؛ لأنَّ البشر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هَيَجَانَ المباغضة، وفيه تحصينٌ من الباغي، ومنجاة من السَّاعي، فمن بشَّ للناس وجهًا لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك، وقد قيل: أنه مكتوب في الحكمة: "يا بنيَّ، ليكن وجهك مبسوطًا، ولتكن كلمتك طيبة، تكن أحبَّ إلى الناس من أن تعطيهم العطاء"؛ وقد قال الشَّاعر:

فالقَ بالبشر من لقيتَ من الناسِ *** جميعًا ولاقِهم بالطَّلاقة
تجنِ منهم جنى ثمارٍ فخذها *** طيِّبًا طعمُها لذيذَ المذاقة

فالموفَّق من وفَّقه الله إلى حبِّ المسلمين والتقرُّب إليهم بجميل الأقوال والأفعال، فمن رُزِق السلوكَ في ميدان طاعةٍ من الطَّاعات؛ فلا يعبسْ بوجه أخيه إذا قصَّر في ميدان مَّا، بل عليه أن يُظهِر له البِشْرَ والبشاشة، فلعله يرجع بحسن أخلاقه معه إلى صحَّة الأوبة وحسن السِّيرة، وعليه أن يشكر الله -عز وجل- الذي وفَّقه لكل حسن مليح وجنَّبه كل سيِّء قبيح، وهذا ما ألمح إليه الشَّاعر في وصف الرَّجل الحسن الأخلاق فقال:

فتى مثلُ صفوِ الماء أمَّا لقاؤهُ *** فبِشْرٌ وأمَّا وعدُه فجميلُ
يسرُّك مفترًّا ويشرق وجههُ *** إذا اعتلَّ مذموم الفعال بخيلُ
عيٌّ عن الفحشاء أمَّا لسانهُ *** فعفٌّ وأمَّا طرفه فكليلُ

وقال آخر:

لن تستتمَّ جميلًا أنت فاعلُهُ *** إلا وأنت طليقُ الوجه بَهْلُولُ
ما أوسط الخير فابسط راحتيك به *** وكن كأنَّك دون الشَّر مغلولُ

ومن حسن خُلُقِ الرَّجل أن يحدِّث صاحبه وهو يبتسمُ وعليه البشاشة وسماه الطَّلاقة، يكاد وجهه يقطر من الكرم والبشر، وتبشِّر ملامحه بالأمان، وكأنَّ خلقه بالطِّيب والحلاوة، وخلا من الملوحة، وصفا من الكدر، خلقٌ كالرَّحيق، مزاجه الأنسام في الأسحار

على صفحات الأنوار، وأخلاق أحسن من الدُّرِّ والعِقْيان في نحور الحِسَان، وأذكى من حركات الرِّيح بين الرَّيحان، شمائل كالماء الزُّلال للظَّمآن، ومناقب جمعت المروءةُ أطرافَها، وحرست الكياسة أكنافها، سقى الله أخلاقه من سيل القطر، وندَّى ريَّاها من طيب البشر، فقد مُدِح ذو البشر والبشاشة فقيل عنه: "هو مادَّة الأنس وحلو المذاق وعذب السَّماع، أعلى الناس في جدٍّ وأحلاهم في هزل، يتصرَّف في القلوب كتصرف السَّحاب مع الجنوب، ذو جدٍّ كعلوِّ الجد، وهزل كحديقة الورد، إذا عاشرته طابت عِشْرَتُهُ ولانت قِشْرَتُه، وإذا واصلته استحسنت وصاله وحمدت خصاله؛ فهو ريحانة الظُّرفاء وفاكهة النُّدماء".

قال رسول الله ﷺ: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)[1]، أي: إظهارك له البشاشة والبشرَ إذا لقيتَه تؤجر عليه كما تؤجر على الصَّدقة، والبشاشة مِصْيَدَة المودَّة، والبرُّ شيء هيِّن، وهو وجه طليق وكلام ليِّن.

والمؤمن أولى بهذه الصِّفات؛ فالمؤمن أخو المؤمن، فينبغي أن يعاشره معاشرةَ الإخوة في التَّحابب والتَّصافي وتجنُّب التَّجافي، والتزام اللين والرِّفق والبشاشة، وجلب المنافع ودفع المضارِّ، والإغاثة والإعانة وجلب المسار.

فالمؤمن يؤلف لحسن أخلاقه وسهولة طباعه ولين جانبه، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، لضعف إيمانه وعسر أخلاقه وسوء طباعه، والألفة سبب للاعتصام بالله، والتمسُّك بحبله له، فإذا لم يكن إلف مألوف؛ تختطفه أيدي حاسديه، وتحكم فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة ولم تصفُ له مودَّة، وإذا كان إلفًا مألوفًا، انتصر على أعاديه، وامتنع بهم من حسَّاده، فسلمت نعمته منهم وصفت مودَّته بينهم.

ومن آداب المضيف؛ أن يخدم أضيافَه، ويظهر لهم الغنى والبسطَ بوجهه؛ فقد قيل: "البشاشة خيرٌ من القِرى"، أي: من الطَّعام، فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك؟! وقد أجاد الشَّاعر في ذلك حيث قال:

---

[1] رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب.

إذا المرءُ وافى منزلًا منك طالبًا *** قراكَ وأَرْمَتْهُ إليكَ المسالكُ
فكن باسمًا في وجهه متهلِّلًا *** وقلْ مرحبًا أهلًا ويومٌ مباركُ
وقدِّمْ له ما تستطيعُ من القرى *** عجولًا ولا تبخلْ بما هو هالكُ
فقد قيل بيتًا سالفًا متقدِّمًا *** تداوله زيدٌ وعمرو ومالكُ
بشاشة وجه المرء خيرٌ من القرى *** فكيف بمن يأتي به وهو ضاحكُ

واعلم -هداني الله وهداك- أنَّ قلَّة البشاشة استهانةٌ بالنَّاس، والاستهانة بالناس تكون من الإعجاب والتكبُّر، وقلَّة التبسُّم -وخاصَّة عند لقاء الإخوان- تكون من غلظة الطِّباع، وهذا الخلق مستقبح وخاصَّة عند أصحاب الشَّأن؛ فالعبوس وما يستتبعه من كآبةٍ واضطرابِ نفس دليل على صغر النَّفس، أمَّا النفوس الكبيرة فيكتنفها جوُّ السَّكينة والطُّمأنينة، وقد قيل لحكيم: مَن أضيقُ الناس طريقًا وأقلُّهم صديقًا؟ فقال: "من عاشر الناس بعُبوسِ وجه واستطال عليهم بنفسه".

بل إنَّ من الناس من إذا غضب حمله غضبُه على التَّقطيب في وجه غير مَن أغضبه، ويستخدم سوء اللَّفظ مع مَن لا ذنب له، وهذا مِن الخرق المذموم وممَّا ينافي الحكمة والحزم والمروءة والاعتدال، فكمال قوة العبد أن يمتنع من أن تؤثر فيه قوَّة الغضب، فخير الناس من كانت شهوته وهواه تبعًا لما جاء بالشَّرع، وكان غضبه ومدافعته في نصرة الحقِّ على الباطل، وشر الناس من كان صريعَ شهوته وغضبه، ولله درُّ القائل في وصف مناقب رسول الله ﷺ قال:

له البشر طبعٌ والسَّماح سجيَّة *** وقاصده يلقى البشاشة والرَّحبَا

وقال آخر في البشاشة:

وعليكَ نفسَك لا تعبْ أحدًا ولا *** ترض الجفا لو فنَّدوك وعنَّفوا
والقَ الخلائقَ بالبشاشةِ لا تكنْ *** متجهِّما ما خاب من يتلطَّفُ
وتغاضَ عنهم لا تعدَّ ذنوبَهمْ *** لو أنهم في سيئاتك أسرفوا

حيِّ العدوَّ تحيةً بتلطُّفٍ *** لا شكَّ ينجو من أذى متلطِّفُ
وذر الرِّيا والعجب والخيلاء *** والأضغان والشَّحناءَ يا متعفِّفُ

واعلم أنَّ التبسُّم يكون عن الغضب كما يكون عن التعجُّب والسُّرور؛ فإنَّ كلًّا منهما يُوجب انبساط دم القلب وثورانه؛ ولهذا تظهر حمرة الوجه لسرعة فوران الدَّم فيه، فينشأ عن ذلك السُّرور والغضب تعجُّبٌ يتبعه ضحك أو تبسُّم، فلا يَغترُّ المغترُّ بضحك القادر عليه في وجهه، ولا سيَّما عند المعتبة، كما قيل:

إذا رأيتَ نيوب اللَّيث بارزةً *** فلا تظنَّنَّ أنَّ الليث يبتسمُ

ومَن أظهر الجميلَ والحسنَ في مقابلة القبيح ليزول الشَّر؛ فهذا فيه اكتساب استمالة ودفع عداوة وإطفاء لنيران الحقد واستنماء الودِّ، وهذا هو طبُّ المودَّات واكتساب الرجال، كان ابن قدامة (صاحب المغني) إذا أراد أن يناظر أحدًا تبسَّم في وجهه، فيقول أحد العلماء عنه: "هذا -والله- يقتل الناس بتبسُّمه!"، وخير التبسُّم ما كان من أخلاق النبي ﷺ، وقد أحسن من قال فيه:

وُلِدَ الهدى فالكائناتُ ضياءُ *** وفم الزَّمان تبسُّم وثناءُ
الروح والملأ الملائكُ حولهُ *** للدِّين والدُّنيا به بُشَرَاءُ
وبدا محيَّاك الذي قسماتُه *** حقٌّ وغرَّتُه هدًى وحياءُ
بك بشَّر الله السَّماء فزُيِّنتْ *** وتضوَّعت مسكًا بك الغَبْراءُ
وعليه من نور النبوَّة رونقٌ *** ومن الخليل وهديه سيماءُ
يا أيها الأميُّ حسبك رتبةً *** في العلم أن دانت بك العلماءُ

لا تنسوا إخوانكم من الدعاء

ثمار المعرفة